أسْتَجِبْ لكم﴾ (غافر : ٦٠) ، وأخبرنا تعالى أنه لا يخلف الميعاد ، ولكن ها هنا بينت ما سألتم عنه بياناً شافياً وهو قوله تعالى : ﴿ إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطّيّبُ والعملُ الصالحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر : ١٠) ، فإنما شرط الإجابة العمل الصالح ، أو أن يكون الداعي مظلوماً ، على ما جاء في الأثر عن النبي عليه السلام فمن دعا وعمله صالح أو هو مظلوم فقد جاء في الأثر عن النبي عليه السلام : أن دعاء المؤمن لا يخلو من إحدى ثلاث : إما تعجيل إجابة ، وإما كفاية بلاء ، وإما تعويض أجر ، أو كلاماً هذا معناه . فاعلموا وفقنا الله وإياكم أن من دفع الله تعالى عنه بلاء ، أو عوضه أجراً فقد أجاب دعاءه ولم يخيبه ، وللإجابة في اللغة معنى غير الإسعاف ، يقال في اللغة : ناديت فلاناً فأجابني ، ودعوته فأجابني بمعنى أتاني ، فالإجابة من الله تعالى بمعنى قَبولِ عملِ العامل في الدعاء وتعويضه عنه الأجر ودفعه عنه البلاء ، وربما يفضل الله تعالى بإسعافه في أن يكون ما طلب ، إذا كان مما سبق في علم الله تعالى أن يكون .

٦ ـ وأما ما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربُّصِ بعضهم ببعض ، فهذا أمرٌ امتحنا به ، نسأل الله السلامة ، وهي فتنة سوء أهلكت الأديانَ إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب . وعمدةُ ذلك أن كل مدبِّر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه ، أوَّلها عن آخرها ، محاربٌ لله تعالى ورسوله وساعٍ في الأرض بفساد ؛ للذي ترونه عياناً من شنّهم الغاراتِ على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارّهم ، وإباحتهم لجندهم قَطْعَ الطريقِ على الجهة التي يقضون [1] على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورةٍ لا تبيح ما حرم الله ، غرضهم فيها استدامُ نفاذِ أمرهم ونهيهم . فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساقُ والمنتسبون إلى الفقه [٢٤٩/أ] ، اللابسون جلودَ الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهلِ الشرِّ شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم . فالمَخْلَصُ لنا فيها الإمساكُ للألسنةِ جملةً واحدةً إلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذم جميعهم ؛ فمن عجز منا عن ذلك رجوتُ أن تكون التقيةُ تَسَعُهُ ، وما أدري كيف هذا ، فلو اجتمع كلُّ من ينكر هذا بقلبه لما غُلِبُوا . فقد صحَّ عن النبيِّ

---

(١) ص : يعصون ، ولعلها (ينقضون) .

صلى الله عليه وسلم أنه قال [1] : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » . وجاء في بعض الأحاديث : ليس وراء ذلك من الإيمان شيء ، أو كما قال عليه السلام ؛ وجاء في الأثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم [2] : « لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ، أو ليعمّنكم الله بعذاب » . واعلموا رحمكم الله أنه لا عذاب أشد من الفتنة في الدين ، قال الله تعالى : ﴿ والفتنةُ أشدُّ مِنَ القَتْلِ ﴾ (البقرة : ١٩١) ، فأما الغرض الذي لا يسع أحداً فيه تقية ، فأن لا يعين ظالماً بيده ولا بلسانه ، ولا أن يزّين له فعله ويصوّب شره ، ويعاديهم بنيته ولسانه عند من يأمنه على نفسه ، فإن اضطر إلى دخولِ مجلسِ أحدهم لضرورةِ حاجةٍ أو لدفع مظلمة عن نفسه أو عن مسلم ، أو لإظهار حقّ يرجو إظهاره ، أو الانتصاف من ظالم آخر ، كما قال تعالى : ﴿ وكَذَلكَ نُوَلِّي بعضَ الظَّالمينَ بَعْضاً بما كانُوا يَكْسِبونَ ﴾ (الأنعام : ١٢٩) أو لصداقة سالفة ـ فقد يصادق الإنسان المسلمُ اليهوديَّ والنصرانيَّ لمعرفة تقدمت ـ أو لطلب يعانيه ، أو لبعض ما شاء الله عز وجل ، فلا يزيِّنْ له شيئاً من أمره ولا يعينه ولا يمدحه على ما لا يجوز ، وإن أمكنه وَعْظُهُ فليعظه ، وإلا فليقصد إلى ما له قصد غيرَ مصوِّبٍ له شيئاً من معاصيه ، فإن فعل فهو مثله ، قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَرْكَنُوا إلى الّذينَ ظلموا فَتَمَسَّكُم النارُ ﴾ (هود : ١١٣) وفي هذا كفاية .

٧ ـ وأما ما سألتم عنه من وجه السلامة في المطعم والملبس والمكسب ، فهيهات أيها الإخوة ، إن هذا لمن أصعب ما بحثتم عنه وأوجعه للقلوب وآلمه للنفوس . وجوابكم في هذا أن الطريق ها هنا طريقان : طريق الورع ، فمن سلكه فالأمر ـ والله ـ ضيق حرج . وبرهانُ ذلك أني لا أعلم لا أنا ولا غيري بالأندلس درهماً حلالاً [٢٤٩ ب] ولا ديناراً طيباً يُقْطَعُ على أنه حلال ، حاشا ما يستخرَجُ من وادي لاردة [3] من ذهب ، فإنَ الذي ينزل منه في أيديهم ، يعني أيدي المستخرجين له بعد ما يؤخذ منهم ظلماً فهو كماء النهر في الحلِّ والطيب ، حتى إذا ضُرِبَتِ الدراهم وسبكت الدنانير فاعلموا أنها تقعُ في أيدي الرعية فيما يبتغونه من الناس من الأقوات التي لا تؤخذ إلا منهم ، ولا

(١) انظر الجامع الصغير ٢ : ١٧١ .

(٢) هو في باب الفتن من سنن الترمذي وابن ماجه (٨ ، ٢٠) ومسند أحمد ١ : ٢ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ؛ ٦ : ٣٠٤ ، ٣٣٣ ، وانظر الجامع الصغير ٢ : ١٢٢ .

(٣) تقع لاردة (Lerida) شرقي مدينة وشقة على نهر يخرج من أرض جليقية وهو النهر الذي تلقط منه برادة الذهب الخالص . واسم النهر شيقر Segar (الروض المعطار : ٥٠٣ والترجمة : ٢٠٢) .